# 2

# كسر أغلال العمال المُسْتَعْبدين

## الهند

يعدّ غاري هاوغن Gary Haugen مفخرة لمهنة المحاماة؛ فهو يتمتع بسمعة طيبة، وتعليم ممتاز، وتاريخ مهني راقٍ، مما يؤهله لرئاسة كبرى الشركات، أو الحصول على وظيفة في الجهاز القضائي يحسده عليها كثيرون. تخرج غاري من جامعة هارفارد، ثم حصل على شهادة في المحاماة من جامعة شيكاغو، ومن ثَمَّ شغل منصب محامي محاكمة في قسم الحقوق المدنية في وزارة العدل الأمريكية، متخصصا في الدفاع عن موكليه. وقد أعارته وزارة العدل إلى منظمة الأمم المتحدة لإدارة ملف تحقيقات في جرائم حرب.

ومن حسن حظ سجناء العبودية أنه انضم إلى حركة مناهضة الرق، مستخدمًا موهبته في تحرير المُسْتَعْبدين من أغلالهم. في عام 1997، أنشأ غاري بعثة العدالة العالمية (المنظمة التي حررت بُندا وبقية أبناء قريته من سجن مطحنة الأرز) وحوّلها إلى حركة نشطة متطورة. ويمثل غاري نموذجا للإنسان العملي. فهو مثل جنرال منهمك في خضم معركة، يمكن أن يسرد لك استراتيجية دقيقة للتعامل مع الوضع القائم، وفي اللحظة التالية قد يضفي لمسة فلسفية على معنى الخير والشر، أو يشرح مفهومه للدولة في المجتمع المدني. إنه تركيبة نادرة من المواهب، تدفعه الأفكار العظيمة، ولكنه يتصرف بدقة الطبيب الجراح.

إنّ مكتبه الكائن في إحدى ضواحي مدينة واشنطن يعطي مزيدًا من الدلائل على تميّز هذا الرجل. إذا دخلت مكتبه، فستشاهد على رفّ الكتب حجرين، أحدهما فوق الآخر. وإنْ سألته عما ستحققه بعثة العدالة الدولية، فإنه يستدير

إلى رف الكتب ويلتقط الحجرين، ثم يخبرك كيف عانى في اكتشاف قرية كاملة في جنوب آسيا مُسْتَعْبَدة بالكامل، وتكدح في مقلع حجارة، حيث يجبر صاحب المقلع، عديم الإحساس، سكان القرية، صغارًا وكبارًا، أن يكسروا قطع الصخور الكبيرة إلى قطع صغيرة مناسبة للبناء. بعد ذلك، يروي لك كيف ساعدت بعثة العدالة الدولية على تحرير هؤلاء العبيد. وعرفانًا من أهل القرية بما فعله غاري من أجلهم، أهداه أحد أطفال القرية هذين الحجرين تذكارا.

وعندما تعيقه الإخفاقات، يذكره الحجران بالمخاطر الكبيرة التي ينطوي عليها عمل البعثة.

## نارايان: الخديعة الأولى

لم يفارق نارايان Narayan حظه السيئ طول حياته، لدرجة أن معروفه انقلب لعنة عليه. كان ناريان قد زار السيد فاسو Vasu بنيّة طيبة، وكلمات أخته مايا Maya لا تزال ترن في أذنيه: نارايان، لا نقود لدينا، حاول إيجاد عمل لنا. كان نارايان يعمل في فرن للطوب، وقد أخذ قرضًا من صاحب الفرن لشراء بقرة. وكان عمه آمار وابن عمه بيشو قد أخذا قرضا نقديّا من الرجل ذاته. وقد عمل الرجال الثلاثة في الفرن لأكثر من سنة، ولكنهم فشلوا في سداد الديون المتراكمة عليهم.

كان معظم أقارب نارايان يعيشون في القرية نفسها التي ولد فيها. وكان صاحب الفرن يسمح للرجال الثلاثة بزيارة أقاربهم في المهرجانات الدينية. لم يكن المهرجان يعني بالنسبة إلى عائلاتهم الاحتفال ببذخ، ولكن مجرد الذهاب إلى النوم بمعدة ممتلئة كان سببًا كافيًا لحضور الاحتفال.

لقد أثبت التعاضد العائلي أنه أفضل دفاع أمام عضة الجوع والفقر. ولذلك، عندما سأل صاحب المصنع إن كان نارايان يعرف أحدًا يبحث عن عمل، سرعان ما فكّر بأخته مايا.

قال صاحب المصنع: لي صديق يدير فرن طابون خاصّا به، وسوف يوفر المأوى والمأكل في الموقع. وفي اليوم التالي، زار نارايان وعمه آمار صاحب العمل الجديد السيد فاسو. أظهر لهما الرجل من الترحيب والاحترام أكثر مما قد يحلم به أشخاص مثلهما ينتمون إلى الطبقة المنبوذة. ولم يتذكر الرجلان، وهما يتناولان الرز المخلوط بالدجاج، آخر مرة أكلا فيها وشبعا. بعدئذٍ، تطرق السيد فاسو إلى الموضوع مباشرة، وقال لهما: أريد أكثر من عشرة عمال يستطيعون العمل مباشرة. ردّ عليه نارايان: سوف تأتي أختي وزوجها، وعدد آخر من أقاربنا، ولكنهم يحتاجون إلى 650 دولارًا دفعة أولى ليستطيعوا تدبّر بعض الحاجات الضرورية. ردّ السيد فاسو: موافق، ولكنهم سوف يعملون عندي، وعندي فقط، إلى أن يسددوا كل دولار من هذا المبلغ. انتظر الرجل حتى هز نارايان وعمه رأسيهما بالموافقة، ثم أضاف شرطًا آخر: وإذا ما هربوا دون أن يسدّوا هذا المبلغ، فسوف أحملكما المسؤولية. وعليكما كفالتهم.

غادر نارايان وآمار مزرعة الرجل بمعنويات عالية جدًّا وهما يطيران فرحا. فإذا ما وزعنا 650 دولارًا على العائلة، فتلك هبة من السماء. إضافة إلى ما أبداه السيد فاسو من دماثة مما يشير إلى أنه سوف يعتني بأقاربهما كثيرًا. وكان نارايان يحثّ الخطى متلهفًا لإبلاغ شقيقته بتلك الأخبار السارة.

## غاري هاوغن؛ "أريد شخصًا ينقذني!"

يتمتع غاري بخبرة كبيرة في مناطق الاضطرابات. ففي عام 1989، وبينما كان يكمل دراسة الحقوق، قضى أربعة أشهر في الفلبين يحقق في الفظائع

والانتهاكات التي اقترفتها قوات الجيش والشرطة بحق المدنيين. وفي أثناء إقامته في مانيلا، اتصل بالأشخاص الذين يعملون في الأحياء الفلبينية الفقيرة، في مجالات الرعاية الصحية، ومحو الأمية، والمشاريع الإسكانية والاقتصادية.

ومع مرور السنين، ظل غاري على اتصال مع أصدقائه هؤلاء الذين أبلغوه أنهم يواجهون صعوبات في تنفيذ أعمال الإغاثة والتنمية. وأخبره هؤلاء كيفية استغلال الأقوياء للفقراء، وكيف يستخدمون العنف لترحيل الفقراء إذا ما قاوموا الاستغلال. ومع أن قوانين البلاد تنص على حماية حقوق المواطنين، إلا أن جهاز الشرطة والمحاكم لا تطبق القوانين بعدالة. واعترف هؤلاء الأصدقاء أنهم عاجزون عن فعل أي شيء عند انفجار العنف، فطلبوا نصيحته: ما الذي علينا فعله عندما يستغل القوي الضعيف؟

وتحدث هؤلاء الأصدقاء عن مشكلة مخيفة أخرى تواجههم تتمثل في اختطاف الأطفال، وقالوا إن البنات الصغيرات من عمر 10 — 14 سنة غالبًا ما يختفين من مراكز الإغاثة. وعندما كان أحدهم يسأل الأطفال: لم أرَ روزا منذ مدة، هل تعرفون ما حدث لها؟ كان الأطفال يهزّون أكتافهم دون أن ينبِسوا ببنت شفة. ولا يكاد يمضي يوم لا تختفي فيه إحدى البنات. ويتكرر السؤال، ولكن لا جواب.

وأخيرًا، استطاعوا اكتشاف الحقيقة، وهي أن البنات كن يُختطفن ويُجبرن على بيع أجسادهن في بيوت الدعارة. وعندما تعمّق أصدقاء غاري في التحقيقات، وجدوا أن الشرطة وسيطا في إدارة هذه المواخير. سأل غاري نفسه: ما الذي على أصدقائي الطيبين فعله لإنقاذ هؤلاء التّعساء؟ لا يمكنهم الاكتفاء بتسجيل هؤلاء الفتيات على أنهن ضحايا لفساد الشرطة. وعلى أي حال، إنّهم لا يملكون الخبرة الكافية في التعامل مع الشرطة هؤلاء.

أدرك غاري أن ما يواجهه أصدقاؤه يقع في مجال تخصصه، وأن باستطاعته التعامل مع هذه القضايا والفوز بها؛ فقد تدرب أصلا على كيفية تفكيك أي مشكلة اجتماعية، ومن ثَمَّ وضع استراتيجية مناسبة لحلها.

إنّ هـذه المشكلة هي التي أرشدته إلى تشكيل منظمة تعنى بإنقاذ ضحايا العنـف، والاستغلال الجنسـي، والعبودية، والظلم. وكان هـو الموظف الأول في مكتـب صغير في العاصمة الأمريكية. أمّا اليوم، فهناك نحو 300 موظف يعملون مع بعثة العدالة الدولية، بدوام كامل، يتوزعون على 14 مكتبًا في الدول النامية، إضافة إلى مكتب واشنطن. ويؤمن غاري بالقول المأثور: عامل الناس كما تحب أن يعاملـوك. قال مرة في إحدى المناسبات: ما الذي أريده فيما لو كنت حبيسا في بيت دعارة؟ أجاب: شخصًا ينقذني! فلو كنت عبدًا في مصنع للطوب لتمنيت شخصا يفكّ قيدي! ولو خُطفت من تجار البشر، لاحتجت إلى شخص يخلّصني. وهذا ما نعمل من أجله؛ مساعدة الناس ليكونوا أحرارًا.

استعد خمسة أزواج – جميعهم أقارب بشكل أو بآخر – للعمل في فرن الطوب، بعد أن زيّن لهم نارايان العرض قائلا: لقد عاملنا السيد فاسو أفضل مما يعاملنا رئيسنا الحالي. كما أنه أيضًا شخص متدّين؛ لقد بنى معبدًا في القرية من ماله الخاص، ويقوم شخصيًّا بالعناية به. لا يمكن أن تحظوا بصاحب عمل أفضل منه!

لم تتوقع مايا أن يجد لها نارايان عملا بهذه السرعة. لذا، جاء هذا العرض نعمة غير متوقعة؛ فقد كانت الأزمة المالية تنذر بأنها ستدوم طويلا، كما أن موجة الجفـاف الأخيرة استنفدت كل ما ادخرته هي وزوجها أجاي للأوقات العصيبة، وجففت قطعة الأرض الصغيرة المزروعة بالخردل الأخضر. ولم يكن هذا حالهم وحدهم، بـل إن المزارع الكبيرة في المنطقة شهدت تلـف المزروعات، وأصبح عمال المياومة عاطلين عن العمل.

وفـي الوقت الذي نضبت فيه مواردهم بيـن عشية وضحاها، بقيت الأفواه الجائعـة التـي كان يتعين عليها وعلى زوجها إطعامها كمـا هي. لقد كان عليهما إعالة والديّ أجاي وابنهما البالغ من العمر ثماني سنوات، إضافة إليهما. وكانت الأجيال الثلاثة تتكدس في كوخ طيني صغير.

وبالرغم من حاجتهما الماسة إلى النقود، إلا أنهما تعاملا مع قرض السيد فاسـو بحذر شديد؛ فالجفاف لن يستمـر إلى الأبد، وسوف يقفان على أقدامهم ثانية عندما يهطل المطر. ولهذا، عندما جلست العائلة لتتقاسم القرض، اكتفت مايـا وأجاي بثلاثيـن دولارًا فقط بدل حصتهما، حيث إن هـذا المبلغ يمكن أن يعيلهم لبعض الوقت. وكانا واثقين أن باستطاعتهمـا سداد هذا المبلغ الزهيد في مدة قصيرة.

بعـد أسبوع، غادر اثنا عشـر عامل طوب، بمن فيهم مايـا وأجاي، القرية يحدوهم الأمل بمستقبل أفضل.

أحضر زوجان من المجموعة ابنتهما ذات السنوات العشر، في حين رافقت زوجين آخرين ابنتهما ذات السنوات الخمس، وترك الباقون أطفالهم في رعاية أقاربهـم، وقالوا إنهم سوف يأتـون لزيارتهم في الأعياد، وربما قبل ذلك لكثير. إن مـا أكده لهم نارايان عن الرجل جعلهم يذهبون مطمئنين، دون أن يخامرهم أدنى شك في نزاهته.

استغرقت رحلـة العمال نصف يوم، بدّلوا فيه الحافلات ثلاث مرات حتى وصلوا إلى مصنع الطوب. وقف العمال بخنوع أمام البوابة الحديدية العالية، ثم وقفـوا لربع ساعة بانتظار من يفتح لهـم. وأخيرًا، أخذوا يقرعون البوابة إلى أن خـرج إليهم شاب، وفتح لهم الباب قائلا: أنا ابن السيد فاسو، لقد ذهب والدي

إلـى المدينة لقضاء بعض الحاجـات. وأردف: لن يغيب طويلا. وفي هذه الأثناء أخذهم في جولة داخل المصنع.

لاحظت مايا أن الابن أغلق البوابة بقفل من الداخل بعد ولوجهم المصنع. كما لفت نظرها الجدار الأسمنتي العالي الذي يحيط بالنصف الأمامي من المجمع. وكان الجدار يتصـل بسياج من الأسلاك الشائكة يحيط بالنصف الخلفي. وفي المنطقة الممتدة وراء السياج، رأت مايا صفوفًا من نبات الأرز المزروعة حديثًا.

أخذهم الابن أولا إلى مهاجع النوم في مبنى مستطيل الشكل وسط المجمع. وفـي الطريق، أشار إلى بيت محاذ للسياج الأيسر، وقال: أسكن مع أبي في ذلك البيت، ولكننا قضينا معظم وقتنا مع أمي في القرية.

ثـم توقف كأنمـا كان يفكر في انتقاء كلماته، محـذّرا: لا تقتربوا من ذلك البيت. إنه منطقة محظورة.

تبيـن للعمال الجدد أن مهاجع النوم ليسـت أكثر من مجرد غرفة واحدة، محاطة بإطار خشبي يشبه ذلك الذي يوضع عادة حول الإسطبلات. وفي الحقيقة أن المجموعـة سوف تطلق على هذا المسكن اسـم الإسطبل من الآن فصاعدًا. كانت الأرضية قد نُظِّفت حديثًا، وكانت الجدران من الطين، والسقف من القش مما جعل الغرفة تظل باردة رغم الحر الشديد في الخارج.

وضعت مايا وأقاربها متاعهم المتواضع في الغرفة والتحقوا بالجولة. كانت مدخنـة فرن الطوب ترتفع عالية في السماء، وتبعد نحو خمسة أقدام، والنار لم تكن مشتعلة فيه. قال لهم الابن: نحتاج إلى بعض الوقت لإشعال النار إلى درجة الحـرارة المطلوبة لتجفيف الطوب. لم يكد الابن ينهي كلامه حتى سمعوا صوتًا من خلفهم: وأنا متأكد أن هذه هي آخر مرة سنرى فيها هذا الفرن مطفأ.

أدارت مايا وأقاربها رؤوسهم إلى الوراء، فرأوا رجلا بدينًا يقف خلفهم على مسافة قصيرة. كان يرتدي سروالاً وقميصًا بلون زعفراني أو برتقالي فاقع، كتلك التي يرتديها رجال الدين الهندوس.

قدّم الرجل نفسه قائلا: مرحبا، أنا السيد فاسو، أنتم الآن تعملون عندي. بعد أن تلفظ الرجل بهذه الكلمات ببطء، أمسك الرجل مجموعة من الأوراق، وقال: هذا هو العقد الذي يجعل اتفاقنا رسميًّا.

سار الرجل متبخترًا مثل طاووس، نحو أجاي وسلّمه الأوراق. شعر أجاي بحرج شديد وهو يأخذ الأوراق لأنه، مثل بقية أقاربه، أميٌّ.

وكما ستقرؤون في العقد، أضاف السيد فاسو كما لو كان غير مدرك للإهانة التي ألحقها بهم، يجب عليكم أن تسددوا لي النقود التي اقترضتموها مني، إضافة إلى الفائدة. سوف أوفر لكم الطعام وأضيف تكلفته إلى المبلغ الذي استدنتموه. سوف تحصلون على 4.5 دولار لكل ألف طوبة تنتجونها وسوف اقتطع هذا المبلغ من الدين. وبعد سداد ديونكم، سوف أدفع لكم نقدًا مقابل عملكم، وإلا ستكونون أحرارًا في البحث عن عمل آخر، سوى هذا الفرن. هل من أسئلة؟ وقف العمال صامتين. وفي الحقيقة أن ما قاله الرجل كان مثلما قاله لهم نارايان بطريقة أو بأخرى، إلّا أنّ ما حيّرهم هو أنهم لم يفهموا معنى «الفائدة»، ولكنهم في الأحوال جميعها كانوا سعداء لأنهم حصلوا على عمل يدر عليهم دخلا.

كرر السيد فاسو ما قاله سابقًا: سوف تجدون أن كل شيء مكتوب عندما تقرؤون العقد. سوف أعود إليكم خلال نصف ساعة لأجد كلّا منكم وقع عقده. وفي هذه الأثناء، أريدكم البدء في إشعال الفرن.

عندمـا كان الرجـل يتحدث إليهـم، شعرت مايا أن النـار تحرق جسدها. ولكنها قالت لنفسها: هذا محض خيال.

بدأ العمل في الفرن الساعة السادسة من صبيحة اليوم التالي. عملت العائلة الكبيرة بشكل جماعي، ولكن إدخال قوالب الطوب إلى الفرن وإخراجها منه كان يتطلـب قوة بدنية كبيرة. لـذا، تولى الرجال هذه المهمة. وفـي الحقيقة أن كلًا منهم شارك في تصنيع الطوب. قضت مايا معظم اليوم في وضع الطين الطري والقشـ في صف تلو الآخر. وعند الضحى، عندمـا كانت الشمس ترتفع في كبد السمـاء، تبدأ في حمل قوالـب الطوب على رأسها، وتضعها فـي ساحة مكشوفة بحيث تستطيع أشعة الشمس الوصول إليها. كان قالب الطوب يحتاج إلى ساعتين ليجف تحت الشمس، ويأخذ شكله النهائيّ بعد جفافه. بعدئذٍ، استراحت العائلة لمدة ساعة واحدة لتأكل ما يتوافر لها من طعام. وبعد الانتهاء من وجبة الغداء، واصـل بعضهم صبّ الطوب، في حين حمـل آخرون القوالب إلى الساحة لتجف، ومن هنـاك حملها آخرون إلى الفرن لتأخذ شكلها النهائي. لقد عمل الجميع ما بوسعهم لحرق الطوب قبل غياب الشمس.

تناوب الرجال على تغذية الفرن، وكان العمل في الخارج والوقوف قريبًا من الفحم المحترق يعني التعرض إلى حرارة لا تُحتمل. كان الطين والغبار يلتصقان بالأجسـاد التي ترشح عرقا، ثم تجفّ بعد فترة، مما يجعل الجسد متشققا. ومع نهاية اليوم، كان مَن يعمل في الفرن يبدو كقالب من الفحم الحجري يمشي على رجلين.

كان السيـد فاسـو متقلبًا ومزاجيًّا فـي تعامله معهم. فإذا مـا أنتجوا أقل مـن ألف طوبة فـي اليوم، كان يصرخ فيهم قائلا: يـا كلاب، يا كسالى. لِمَ أنتم متقاعسـون هذا اليوم؟ وإذا ما عملوا بسرعـة أكبر وأنتجوا ألفًا ومئتي طوبة في اليـوم، فهذا أيضًا لا يرضيه. حيث يشتمهـم ويسبهم، ويقول لهم: يا ملاعين يا

غشاشيـن، ألم أدفع لكم أكثر من أجر ألف طوبة. لقد كان دائمًا يحاول أن يجد سببًـا للتذمّر؛ فكان مثلا ، يبحث عن أي طوبة فيهـا عيب بسيط، ليتهمهم بعدم إجادة عملهم. لقد بدأ السباب والشتائم منذ أول يوم وصلوا فيه إلى الفرن. ومع انتهاء الأسبوع الأول، تحول سوء المعاملة إلى عنف جسدي؛ فكان يضرب الرجال بعصا ، ويلطم النساء بيده على وجوههن. وفي أحد الأيام، وبينما كانت مايا ذاهبة إلـى البئر لتجلب ماء للشرب، صفعها على وجههـا ، فسقطت على الأرض. لِمَ لا تقومين بعملك؟ سألها السيد فاسو بفظاظة. ردت عليه مايا قائلة: الحَرُّ لا يُطاق هذا اليوم، أكاد أموت عطشا!

لم تلحظ يده وهي تهوي على أذنها وجانب وجهها الأيمن، ففقدت توازنها وسقطـت على الأرض. تركها الرجل على هذه الحال، وابتعد متمتمًا: قد يُنسيك هذا عطشك.

كثيـرًا ما تحتفظ السلطة، بجميع أشكالها ، بحقها في التصرف وفق تقلّب مزاجها؛ فأحيانًا كان قالب الطوب يسقط دون قصد من على رأس إحدى النساء، مما يجعل السيد فاسو يضحك كثيرًا كما لو كان يشاهد مسرحية هزلية. وإذا ما تكرر هذا الأمر مرة أخرى، كان يجلد تلك المرأة بقسوة. وفي عصر أحد الأيام، ضرب أجاي بقسوة لأن حرارة الفرن كانت أعلى من المطلوب مما أدى إلى تلف مجموعة كاملة من الطوب. ولكن، دُهش العمال في اليوم التالي عندما قدّم لهم السيد فاسو وجبة جاهزة من الدجاج على أدائهم الجيد.

كان ذلك اليوم من الأيام التي لا تنسى؛ لأن تقديم الدجاج للعمال لم يكن شائعًـا داخل المجمع، وكانت الوجبة اليوميـة التي تتكرر ثلاث مرات هي حساء الشعيـر والخردل الأخضر. ونادرًا ما كانـوا يتناولون الخضراوات أو اللحم؛ لأن ميزانية الأكل لا تكفي لمثل هذا الترف. كان السيد فاسو يعطيهم نقودًا ليشتروا طعامًا في الوقت الذي يحلو له. وكثيرًا ما كانوا يقضون أيامًا يتضورون جوعا لأنه

لـم يعطهم نقـودًا. وعندما حدث ذلك لأول مرة، قال ابن عـم مايا للسيد فاسو بأنهـم لم يذهبوا إلى السوق منـذ أسبوع، فنظر إليه السيد فاسو نظرة غاضبة، ثم غاب لبضع دقائق، وعاد حاملاً عصا، وضرب ابن عمها ضربا مبرّحا، وقال له وهو يهوى بالعصا على ظهره: أنا الذي يقرر ذهابك إلى السوق أو عدمه. كان صاحب الفرن يسمح لأفراد قليلين بالذهاب إلى السوق، وكان يجبر الأطفال أن يعملـوا بدل والديهم إلى أن يرجعوا من السوق. وكان يحذر الذاهبين إلى السوق بالقول: إذا لم ترجعوا، فسأجعل حياة الموجودين في هذا المكان جحيما.

افترضـت مايا أن الجشع هو ما يدفع هذا الرجل إلى تقييد حركتهم، وأنه يريـد الاحتفاظ بأكبر عدد منهم يعملون لأطـول مدة ممكنة. لكنها غيّرت رأيها عندمـا رفض السماح لهم بالعـودة إلى قريتهم في إحـدى المناسبات الدينية. لأنكم أيها الكلاب كنتم كسالى، ولا أستطيع تلبية طلبات الزبائن كلها من الطوب، ولذلك سوف تمكثون وتشتغلون. هكذا كان ردّه.

ومع مـرور الوقت، اقتنعت مايا أنهم في الحقيقة لـم يلتحقوا بعمل، وإنما بمعسكر للأشغال الشاقة.

## غاري هاوغن؛ ما معنى الإغاثة؟

فـي بداية تأسيس بعثة العدالة الدولية، أجرى غاري وفريقه دراسة شاملة عن الاحتياجـات اللازمة. وغطت الدراسة نحو سبعيـن منظمة تعمل في مجال الإغاثة والتنمية في أنحاء العالم قاطبة. وكانت هذه المنظمات مجتمعة تساعد عشرات آلاف العمال في أنحاء العالم.

وقـد أفادت هذه المنظمـات جميعها أنها وثقت انتهـاكات خطيرة لحقوق الإنسان، مثل عمل السخرة، والاتّجار بالجنس، والاستيلاء القسري على الأراضي،

والفســاد في الجهاز القضائي الرسمي. وعندمــا حاولت هذه المنظمات إيقاف هذا الظلم، لم تجد التعاون الكافي من الشرطة والمحاكم.

لقــد أكدت نتائــج الدراسة ما توصل إليه غاري فــي تحقيقاته السابقة في انتهاكات حقوق الإنسان، وهي أن من يمارسون هذه الانتهاكات يستخدمون العنف لاقتــراف أعمــال الظلم، ولسدّ الطريق بوجه أي نجــدة يقوم بها المتطوعون في محاولة مساعدة الضحايا.

يضــاف إلى ذلك أن النظام القضائي الرسمي يحبط أي محاولة يقوم بها الفقــراء لتغيير أوضاعهم الاجتماعيــة. فمثلا، أفادت منظمة إغاثة معروفة بأن أعمال السخــرة انتشرت في دول جنوب شرق آسيا لتصل إلى أطفال المدارس. وقالت في تقريرها إلى بعثة العدالة الدولية: إن الأطفال الصغار يُجبرون على لفّ السجائــر لمدة تتراوح بين سبعين إلى ثمانين ساعة أسبوعيًّا، أو حياكة السَّجاد في مصانع متنقلة. ومع أن هذه الممارسات تعدّ غير قانونية في عموم المنطقة، إلا أن القائمين على تنفيذ القانون يتغاضون عنها. فإذا كان هؤلاء يرفضون وضع حــد لتجارة الرّقيق، فإلى من سيلجأ الأطفــال طلبًا للمساعدة؟ زد على ذلك أنّ محامي منظمة الإغاثة الدولية هذه عاجزون عن تقديم المساعدة للمظلومين.

لقــد أبلغت منظمــة إغاثة أخرى تعمل في الهند عــن مشكلة أكثر خطورة، وهي أن عيادات الصحة أخذت تستقبل حديثًا مجموعات من الأطفال المصابين بمرض نقص المناعة المكتسب – الإيدز – وكان هؤلاء الأطفال يأتون مباشرة من «المنطقــة الحمراء» في المدينة. ومــع أن المنظمة قدمت مساعدات للمصابين بهذا المرض، إلا أنها رأت ضرورة القيام بعمل وقائي لمعالجة المشكلة. غير أنها أضافت بأن أي محاولة لإنقاذ هؤلاء الأطفال من بيوت الدعارة يعني الاصطدام بالعصابات الإجرامية، وجمود جهاز الشرطة العاجز.

وبالنسبة إلــى بعثة العدالة الدولية، فقد استمدت سمعتها من نجاحها في إنقــاذ الضحايا. وهي تعتقــد أن تغيير الصورة العامة يمكن أن يُعزى إلى وسائل الإعلام. فقد تعرّف كثير من الأمريكيين إلى بعثة العدالة الدولية لأول مرة في عام 2004، بعد عرض برنامج تلفزيوني عن غارة قادتها البعثة على بيوت الدعارة في منطقة سفاي باك Svay Pak في كمبوديا. ونجحت تلك الغارة في إنقاذ 37 بنتًا بيــن عمر 5 سنوات و17 سنة، وإلــى إنقاذ عدد من أصحاب بيوت الدعارة، وإلى طــرد عدد قليل من ضباط الشرطة الفاسدين. إنّ مهمة إنقاذ الضحايا خطيرة ومثيــرة ورائعــة في آن واحد. وممــا يُؤسف له أن أي مخــرج تلفزيوني أمريكي لا يخصص الوقت الكافي للحديث عن المشاريع الصغيرة الناجحة التي يمكن أن تحصّن المجتمعات الضعيفة أمام تجار الجنس.

وفــي حقيقة الأمر أن الإغراء المرافق لإنقــاذ الضحايا يمتد إلى أبعد من مجرد الإثارة؛ إنه استجابة طبيعية للرغبة في إنقاذ الذين يقعون في ذاك الأسر. فعندمــا ينضم النــاس إلى حركة مناهضــة الاتّجار بالبشر، فإنهــم في الأغلب يتصــورون أنفسهــم يهاجمون معسكر عمــل لإنقاذ أفراد أسرى فــي داخله. أما الذيــن لا يحلمون بالمشاركة في هذه الهجمــات، فيتساءلون عن كيفية عِتْقِ فتاة صغيرة من بيت دعارة ومساعدتها على بدء حياة جديدة.

واستنــادا إلى هذه النظرة الرومانسية، قد يُساء فهم عمليات الإغاثة التي تشرف عليها بعثة العدالة الدولية. وأودّ هنا توضيح أن هذه الوكالة لا تدير عمليات مطاردات جماعية كتلك التي تصورها أفلام رعاة البقر، بل على العكس من ذلك تمامًــا، فإن تدخلاتها ترتبط ببرنامــج وسطي يهدف دعم المجتمعات الضعيفة من جهة، وتقوية نظام العدل الرسمي من جهة أخرى.

وفي هذا السياق، يجب تمييز جهود بعثة العدالة الدولية عن النّيّات الطيبة لبعض الوكالات الغربية لشراء حرية المُستَعْبدين. وقد طبق تحرير الرقاب في

السودان بنجاح، وبين مجموعات قليلة من المنظمات الدولية التي تحرر النساء من بيوت الدعارة.

وبالتأكيد أن هناك بعض القضايا الصعبة جدًّا التي يكون فيها فداء العبيد ضروريًّا. ولكن شراء حرية العبيد يمكن أن يؤدي إلى عدة عواقب غير مقصودة، كأن ينجم عن ذلك إيجاد سوق رائجة في الاتّجار بالبشر، حيث إن تجار الرّقيق يتعاملون مع البشر كأي سلعة مادية أخرى. فإذا ما زاد الطلب وقل العرض، فسوف يلجأ تجار الرّقيق بكل بساطة إلى البحث عن أهداف سهلة، وزجها في العمل القسري إلى أن تأتي وكالة غربية تفتديهم.

كما أن فداء العبيد يقلل أيضًا من فرص محاكمة تجار الرّقيق؛ فأجهزة الشرطة تبدي رغبة في التدخل فقط بعد أن تكون الجريمة قد حُلّت. فإذا ما أُنقذ المُستَعْبد دون تدخل من الشرطة، فإن أنظمة القضاء تتردد أيضًا في متابعة القضية الإجرامية تلك.

ويدرك غاري هاوغن أن جهود افتداء العبيد لا تحل المشكلة، بل تدور حولها. وأن فكرة قصاص المجرمين ستكون مجدية لو كان النظام القضائي يعمل بصورة سليمة. يضاف إلى ذلك أن فداء العبيد يتحول إلى استراتيجية هادمة للذات. فلو افترضنا أننا مكان الأشخاص الخارجين على نظام العدالة، فإن ممارسة اللعبة وفق قوانينهم سوف تجعلهم ينتصرون دائمًا. فإذا لم يكن لدينا سلطة القانون، يقول غاري، فسوف تكون لدينا سلطة الذين يطبقون القانون على هواهم. تستخدم بعثة العدالة الدولية طريقة تسمّى تحليل ممثل السلطة لتحديد وكلاء تنفيذ القانون الذين يمكن التعامل معهم لتحقيق العدالة. ويطرح هذا الأسلوب أسئلة عديدة، مثل: ما آلية عمل الجهاز القضائي في المجتمع؟ كيف يجري حل قضايا المحاكم الرسمية بطريقة غير رسمية؟ من الشخص المسؤول رسميًّا عن تطبيق العدالة؟ من أفضل شخص في شبكة بعثة العدالة الدولية يستطيع

التعامـل مع أفضل شخص مرشح لتطبيق العدالـة؟ في معظم الحالات، لا تلجأ بعثـة العدالة العالمية إلى الاتصال بالرتب الدّنيـا في جهاز الشرطة. وغالبًا ما يكـون ضباط النوبات مرتبطين مع المجرم بعلاقة اجتماعية أو عائلية أو مالية. ونادرًا ما يمكن العثور على ضابط كبير يستطيع اتخاذ إجراء دون موافقة قائده. عند تحديد ممثل السلطة المناسب، تقدّم إليه بعثة العدالة العالمية ما تملكه من أدلة وإثباتات، وتعطيه الفرصة للقيام بالإجراء الصحيح والحصول على التقدير والإشادة. ويقول غاري: إن الحقيقة هي أكبر حافز يدفع ممثل السلطة على تطبيق القانون. كما أن مجرد تقديم الدليل من قبل منظمة حقوقية دولية قد يفيد أيضًا في دفع ممثل السلطة على التصرف. وهناك عدد قليل من ضباط الشرطة الذين قد يخاطرون بإخفاء الدليـل، ويمتنعون عن اتخاذ إجراء بحق المخالفين. وفي الوقت ذاته، قد يؤدي تدخل المنظمات الأجنبية إلى نتائج عكسية، لأن المسؤول قـد يرى ذلك مسألة كرامة. فتجـده ينظر إلى هذه المنظمات بازدراء واحتقار، مـع أن معظم موظفي بعثة العدالة الدوليـة، مثلا، من مواطني المنطقة نفسها. ولذلك، يجب أخذ هذه الاعتبارات كلّها بالحسبان عند تحليل ممثل السلطة.

ويعترف غاري أن التدخل يحتاج إلى عمل تحضيري كبير، وخاصة إذا كانت أي منظمة ستبدأ من الصفر، على العكس من بعثة العدالة الدولية التي تعمل في المنطقة منذ مدة طويلة، بنت خلالها علاقات قوية مع عدد من القضاة الملتزمين.

## مايا: انتهاك يقود إلى آخر

بالرغم من أن السيد فاسوكان يذكرّهم بديونهم باستمرار، إلا أنه لم يكن لدى مايا أدنى فكرة عن قيمة المبلغ الحقيقي الذي يدينون به إليه. وقد احتاجت إلـى ستة أشهر لتستجمـع شجاعتها وتطلب إليه كشف حساب. لقد ذكر لهم من قبل أنهم سوف يحصلون على 4.5 دولار مقابل كل ألف طوبة. وإذا ما قُسّم هذا

المبلغ علـى خمس عائلات، فإن الأجر لن يكون مجزيا. وبالرغم من ذلك، رأت مايا إمكانية سداد دينهم. لذلك، صُعقت عندما أبلغها السيد فاسو أن دينها قد تضاعف، فردّت عليه بغضب: هذا مستحيل، لقد عملنا هنا طوال ستة أشهر!

وكمـا لو أنه قد توقع مسبقًا مثل هذا الرد، أخـرج السيد فاسو ورقة مليئة بالخطوط والأرقام، وقال بابتسامة ساخرة: كما ترين، فقد تراكمت الفائدة على الدين. كما أنني أعطيتكم مبلغًا كبيرًا لشراء الطعام.

حملقت مايا في الورقة، ولكن الأرقام لم تعنِ سوى أنها خطوط عشوائية لا معنى لها. وبعد أن تأكد من أن لا مجال أمامها للاحتجاج، قال: عليكم مضاعفة جهدكم.

عندمـا أبلغـت مايا أقاربها بما عرفته، ضجوا بالشكـوى، ولم يصدّقوا ما سمعـوا. وبعد فترة من الصمت، قال أحد أبناء عمومتها، وكأنه كان يتحدث بما يدور في رؤوس الجميع، كيف سنخلّص أنفسنا من هذا السجن؟

كان من المستحيل بالنسبة لهم كبشر مضاعفة إنتاجهم اليومي، وحتى لو زاد إنتاجهم عن ألف طوبة في اليوم، فإن السيد فاسو لن يحتسب هذه الزيادة لهم.

ومما زاد الأمور سوءًا، إغلاق الفرن لعدة أسابيع بناء على أوامر خارجية، كما قال لهم السيد فاسو. وفي أثناء فترة الإغلاق هذه، أُرغم الرجال على العمل حول المجمّع؛ تنظيف الفرن، جمع القش، إصلاح الجدار، وهكذا. ولم يحصلوا على أي أجر مقابل هذا.

أمـا النسـاء، فقد طلب إليهن تنظيـف المعبد الذي بناه فـي القرية. وفي المـرة الأولـى، أخذ ثلاث نساء فقط؛ مايا واثنتين مـن بنات عمها. بدأن العمل

منذ الصباح الباكر، فكنسن أرضية المعبد ولمّعن الأصنام الموجودة فيه. وبعد أن أنهين عملهن عند الظهر، جلسن ينتظرن السيد فاسو ليعيدهن إلى المجّمع.

عندمـا عاد، لم يكن وحده، بل كان معه خمسـة رجال، اعتقدت مايا أنهم من المشرفين على المعبد.

بادرها السيد فاسو قائلا: مايا، عندي لك عمل في الغرفة الخلفية، تعالي. اتجه إلى الغرفة، وتبعه أحد مرافقيه، فسارت خلفهما. عندما دخل الغرفة، أغلق فاسو الباب وطلب إليها بهدوء خلع ملابسها. مرت لحظات على مايا وهي تحاول استيعـاب ما أمرها بـه، وتساءلت بينها وبين نفسها: كيـف يمكن لرجل دين أن يتصـرف بدناءة في معبده؟ وعندما تيقنت من حرج موقفها، استدارت محاولة الهرب، لكن مرافقه سد الطريق أمامها، وطرحها أرضًا، وأمسك ذراعيها بقوة، فـي حين كان السيد فاسو يمزق ثيابها ويغتصبها. ثم تبادل الموقف مع مرافقه ليساعده على اغتصابها.

عندمـا انتهى الرجلان مـن اغتصابها، قال لها فاسـو: ارتدي ملابسك، سـوف نعـود إلى المجمّع في عشر دقائق. كان يتحـدث بصوت طبيعي كأن شيئًا لم يحدث، لدرجة جعلها تستهجن سبب غرقها في عارها في حين لا يظهر عليه أي شعور بذلك.

عندما ارتدت ملابسها وعادت إلى قاعة المعبد، عرفت فورًا أن بنات عمها تعرضـن أيضًا إلى الاغتصـاب؛ خيّم الصمت عليهن. لـم تتحدث إحداهن إلى الأخرى، كما لم يبحن بشيء عندما عُدن إلى المجمّع، واحتفظن بسرّهن خشية الفضيحة.

## الكرامة أقوى من الأسر

إنّ إنقاذ الرهائن لا ينتهي بمجرد تحريرهم من الأسر، لأن التخلي عنهم وتركهم يتدبرون أمورهم بأنفسهم يجعلهم عرضة للوقوع ثانية في شباك أعمال السخرة مع تاجر آخر. ولذلك، يجب على مناهضي الرق أن يجيبوا عن هذا السؤال قبل الإسراع في تنفيذ خطة إنقاذ ما: ماذا بعد؟

وربما لن يكمن الحل في إعادتهم إلى بيوتهم وكفى، لأنهم سيكونون هدفًا للذين اختطفوهم أصلا من قراهم. ومع أن النّاشطين في مجال الرعاية الاجتماعية يستخدمون مصطلحات مثل الدمج في المجتمع والتأهيل النفسي، إلا أن عملية الرعاية اللاحقة أكثر تعقيدًا، وخاصة إذا علمنا أن الفتيات المراهقات المحررات من بيوت الدعارة يفضلن البدء بحياة جديدة بعيدًا عن قراهن الأصلية، في بيئة داعمة خالية من التجريم، وبعيدا عن مجتمع يلاحقهن بوصمة العار.

وقد اكتشفت هذا التعقيد في أثناء مقابلاتي للعمال المُحررين من مصنع للأرز في الهند. كان 25 من هؤلاء العمال المُحررين يرتبطون بعلاقات عائلية. وعندما سألت المرأة، كبيرة العائلة، عن المنطقة الأصلية التي جاءت منها، نظرت إليّ حائرة، وقالت: من مصنع الأرز. ثم أوضحت أن والدها أُجبر على العمل في المصنع وهو في العشرين من العمر. ولذلك، عملت في ذلك المصنع طوال حياتها، ورّبت أطفالها ليرثوا العمالة في المصنع ذاته.

وبعدما حكت لي الأم الكبيرة مأساة أربعة أجيال في العبودية، والتي بدأت بقرض قيمته عشرة دولارات، جاء دور ابنتها، البالغة من العمر 35 عامًا، لتحكي قصتها. قالت إنها التقت زوجها في المصنع، وأنهما كانا يربّيان ثلاثة أطفال ينتظرهم مستقبل طويل في غلي الأرز وتجفيفه. وقد تعاونت بعثة العدالة العالمية مع أحد القضاة المحليين لتغيير مصير هذه العائلة الممتدة بين عشية وضحاها.

فما الذي سيعنيه إعادتهم ثانية إلى بيوتهم بالنسبة إلى هذه العائلة، وإلى ملايين عمال السخرة الذين عايشوا المأساة نفسها؟

تساعد بعثة العدالة العالمية اليوم ألفي شخص في جنوب آسيا من المُسْتَعْبَدين السابقين وعائلاتهم من خلال عدة برامج رعاية لاحقة. ويقوم المتعاونون مع البعثة في الفترة التي تعقب عملية الإنقاذ، بالتعاون مع شبكة شركاء إغاثة، بتوفير المأوى للمُسْتَعْبَدين السابقين، والغذاء، والتوجيه النفسي، والحماية من انتقام مالكيهم. وباستثناء الحالات الملحة جدًّا التي يكون فيها العنف وشيك الحدوث، فإن البعثة سوف تؤجل تنفيذ خطة الإنقاذ إلى حين الانتهاء من إعداد خطة الدعم طويلة المدى. وتساعد البعثة العبيد السابقين في الحصول على قروض أو مساعدات مالية من السلطات المحلية، وعلى أراض حكومية لغايات السكن. كما تقوم بمساعدتهم على تسجيل أطفالهم في مدارس حكومية. وهذا من أهم الحقوق التي يفتقرون إليها بشدة.

والسؤال هو: ما مدى فاعلية الرعاية اللاحقة؟

لقد توصلت البعثة من خلال مراقبة برامجها إلى أن 94% من العبيد السابقين الذين تضعهم في بيئة داعمة لا يعودون إلى العبودية أو الرق مرة أخرى.

## مايا: الهروب الجريء

مثل الذئاب التي ذاقت طعم الدم وعادت إلى فريستها، ظل السيد فاسو وأصدقاؤه يعتدون على هؤلاء النساء جنسيًّا في كل فرصة تتاح لهم، ويضربوهن ويحرقون أجسادهن. وعادة ما كان المالك وابنه يتصرفان لوحدهما. كان السيد فاسو كثيرًا ما يقول للنساء: لقد حان الوقت لتنظيف المعبد. كان يقول ذلك أمام أزواجهن بصوت خافت كأنما كان يريد من الجميع مشاركته في واجب مقدس.

ومع أن النساء احتفظن بعارهن سرًّا، إلا أنهن أعددن خطة للهروب. رفض أزواجهن منذ البداية هذه المحاولة اليائسة؛ لأن عواقب أي محاولة هروب فاشلة كانت ترعبهم أكثر بكثير من سوء المعاملة التي يتعرضون لها يوميًّا. وإذا ما هربوا، فسوف يعمل المستحيل من أجل إعادتهم. في إحدى الليالي، أحضر السيد فاسو معه أصدقاء المعبد إلى المجمّع بعد حفلة سكر صاخبة في حانة محلية. اقتحم السكارى مهاجع نوم العمال، وأخذوا يجرّون النساء إلى الخارج. وعندما قاومهم الأزواج بشدة، ضربتهم العصابة بالعصي وقيدتهم لشلّ حركتهم. ظل الرجال يتلوّون على أرض الإسطبل الترابية، في حين تناهت إلى أسماعهم همهمات المغتصبين وهم يعتدون على نسائهم. وأخيرًا، انكشف اللغز أمامهم، وغرقوا في عارهم، وعرفوا سبب إصرار زوجاتهم على الهروب. وبعد أن أشبع الرجال شهوتهم، عادت النساء الكسيرات وتكوّمن في الإسطبل؛ قدّر الأزواج آلامهن، وخيّم صمت مطبق.

عندما ذهبت العائلة في اليوم التالي لتصنيع الطين في القوالب الخشبية، أعدت خطة للهرب. تنصت أجاي على المالك وهو يتحدث إلى ابنه عن مهرجان سوف يحضرانه في القرية. بعد عدة أيام، انطلق فاسو ورجاله إلى ذلك المهرجان عصرًا، وفي ذلك المساء، تسلقت العائلة البوابة الحديدية. ومع أن تخطي الخوازيق في أعلى البوابة لم يكن سهلا، إلا أن كلًا منهم ساعد الآخر على النزول إلى الأرض بسلام.

ولأنهم يعرفون أن فاسو سوف يستجوب سكان القرية، فقد استغل الهاربون ظلمة الليل في الابتعاد عن المجمّع إلى أبعد مسافة ممكنة دون أن يشاهدهم أحد. ومع حلول الفجر، استقلوا حافلة متوجهين صوب قريتهم.

عندما وصلوا القرية، استقبلهم أقاربهم بحرارة. كان الأقارب يعتقدون أنهم اختفوا من على وجه البسيطة، وأمطروهم بأسئلة كثيرة، حول فقدانهم طوال

تلـك المدة. وبعد أن هدأت حرارة الاستقبـال، سردت مايا والآخرون حكاياتهم في الأسر.

ومـع أن الهاربين كانوا سعداء بالعودة إلى بيوتهم، إلا أنهم كانوا متيقنين أن هذا المكان سيكون أول من سيرسل إليه السيد فاسو بصائدي الجوائز للبحث عنهم. كان بعض أقاربهم يعيشون في الجانب الآخر من مقاطعتهم، فاتفقوا أن من الأفضل الذهاب إلى هناك والاختفاء عندهم، وأنهم سوف يفعلون ما يستطيعون لتجنب الإمساك بهم وإعادتهم إلى فرن الطوب.

## هل هذه عبودية؟ أكاذيب وحقائق

عندما يُقدّم مالكو العبيـد إلى المحاكمة، فإنهم عادة ما يحاولون التّستّر علـى جرائمهم بمجموعة مـن الأكاذيب. وقد أعدت بعثـة العدالة الدولية نشرة خاصة بجنوب آسيا لتصحيح هذا الوضع. وتورد النشرة أكثر التبريرات الشائعة التـي يستخدمها مالكو العبيد، ومقارنتها بالحقائق. وقد أعيدت صياغة القائمة التالية من هذه النشرة:

**الأكذوبة:** لقد أنقذ القرض الذي أعطيته لهؤلاء الناس من محنتهم.

**الحقيقة:** مع أن القرض الأولي ربما يكون قد ساعد في تخفيف محنة هؤلاء الناس، إلا أن أعمال السخرة تضعهم في وضع أصعب من محنتهم. ونظرًا لأنهم يتلقون أجـرًا متدنيًا، وغالبًا ما تُفرض عليهم فوائـد عالية، فإنهم يعجزون عن سداد الدين، وربما يظلون يعانون طوال حياتهم لسداد قرض واحد.

**الأكذوبة:** العامل هو الذي طلب قرضا ماليّا مني.

**الحقيقة:** سواء طلب العمال قرضـا أم لا، فإن صاحب العمل لا يستطيع، قانونيًّا، أن يسلبهم حريتهم.

**الأكذوبة:** لولاي، لأصبح هؤلاء الناس مشردين.

**الحقيقة:** إن توفير المسكن، على رداءته، لا يخفف من أثر الظلم الناجم عن استعباد الضحايا. يضاف إلى ذلك أن القوانين ذات العلاقة تنص على عدم إخلاء العاملين من مساكنهم.

**الأكذوبة:** إذا أخرجتم هؤلاء الناس فسوف يصبحون بلا عمل.

**الحقيقة:** إضافة إلى إعادة التأهيل التـي يستحقها الضحايا قانونيًّا بعد تحريرهم، فإنهم يتخلصون من الدين، ومن وضع مسيء لإنسانيتهم، ويستطيعون البحث عن فرصة عمل أفضل.

**الأكذوبة:** إن لم يعيدوا لي القروض التي أعطيتها لهم فسوف أخسر مبالغ كبيرة.

**الحقيقة:** لأن القرض كان غير قانوني من أساسه، فإنه لاغ وباطل. وعليه، فـإن قبـول دفعات عن هذا القرض يعد مخالفة قانونيـة. وبغض النظر عن هذه الحجـة، فإن الضحايا في معظم الحـالات يدفعون ثلاثة أضعاف قيمة القرض، مما يعني أن صاحب العمل قد حصل على أموال طائلة بسبب هذه الفوائد.

**الأكذوبة:** سوف تتوقف الصناعة لو لم تعتمد على أعمال السخرة.

**الحقيقة:** أساليـب العمـل السليمة ضروريـة لأسباب قانونيـة وأخلاقية واقتصادية. صحيح أن تكلفة القضاء على العبودية قد تتحملها الطبقات الغنية،

ولكن القضاء على العبودية سوف يؤدي أيضًا إلى تحديث أساليب التصنيع، وقد يدعم تقدم البلاد الاقتصادي.

**الأكذوبة:** بإمكان العمال ترك العمل إذا ما سددوا قيمة القرض أولا.

**الحقيقة:** تحظر القوانين ذات العلاقة أصحاب العمل منع الأفراد من البحث عن عمل في مكان آخر. ولذلك، فإن عدم القدرة أو عدم الاستعداد لإعادة القرض لا يلغي هذا الحق.

**الأكذوبة:** أنتم تستهدفوني شخصيًا؛ فالمصالح الأخرى كلّها تفعل الشيء ذاته.

**الحقيقة:** القانون ملزم للجميع. إن عدم التزام أي صناعة بالقانون لا يعطي الحق لأي صاحب عمل حرمان العمال من حقوقهم الأساسية.

**الأكذوبة:** الوسطاء هم الذين أحضروا لي هؤلاء الناس. لم أكن أعرف كم كانوا يتقاضون، أو ما هي الحريات الممنوحة لهم.

**الحقيقة:** يفترض القانون أن القائمين على الشركة يعرفون عملياتها. وعلى هذا الأساس، فإن القانون يعتبر المسؤولين عن الشركة مذنبين في حال حدوث مخالفة، بغض النظر عن معرفتهم الشخصية.

**الأكذوبة:** لن يعملوا عندي، إذا لم أعطهم قرضا.

**الحقيقة:** صحيح أنّ القرض المالي قانوني، ولكن القضية هي فيما إذا كان العمال قد أكرهوا على العمل أم لا.

**الأكذوبة:** حتى وإن نصّ القانون على إلغاء القرض النقديّ، فإن العمال يتحملون التزامًا أخلاقيًّا بسداد الدين.

**الحقيقة:** مثلما أن العمال غير ملزمين قانونيًّا بدفع الدين، فإنهم أيضًا غير ملزمين أخلاقيًّا؛ إذ لا يمكن أن يُبنى الالتزام الأخلاقي على عمل غير أخلاقي.

## نارايان؛ رهائن المعبد

استغرب ناريان عدم عودة شقيقته وزوجها أجاي إلى القرية بمناسبة الأعياد الدينية. ولطالما عرف أن مايا تكره أن تكون تحت وصاية أي إنسان أو كفالته. ولذلك، اعتقد أنهما قررا أن يعملا أيامًا أكثر ليتمكنا من سداد دينهما. وقرر بينه وبين نفسه أن يزورهما في فرن الطوب قريبًا للاطمئنان عليهما. ولكن في صبيحة أحد الأيام، وقع بصره على السيد فاسو وهو يعبر بوابة فرن الطوب. بعد مدة قصيرة، خرج مدير نارايان من مكتبه وأبلغه أن السيد فاسو يريد التحدّث إليه على انفراد. تحول حب الفضول لديه إلى خوف؛ فهذا الشخص لا يحمل أخبارًا سارّة البتة.

عندما دخل نارايان، كان السيد فاسو يذرع المكتب جيئة وذهابًا. وعندما رأى نارايان، اندفع تجاهه ومد رأسه حتى كاد يلتصق برأس نارايان، وقال: لقد نقضتْ عائلتك عهدها. لقد هربوا، إن كنت حريصا على مصلحتك، فعليك إخباري بمكانهم.

كان نارايان يعرف أن أخته لا تتصرف بتهور، ولذلك طمأن السيد فاسو قائلا: أنا على يقين بعودتهم، ربما ذهبوا في زيارة قصيرة إلى قريتنا.

ردّ السيد فاسو قائلا: لقد عرفت أنك لن تتعاون. لقد حذرتك وعمك بأنني سأحملكما مسؤولية تصرفاتهم. اذهب واحضر عمك وابن عمك، ستغادرون معي الآن.

كان السيد فاسو ينفث كلماته بغضب لدرجة أدرك معها نارايان أن من العبث مناقشته، فهز رأسه وخرج.

في خارج المكتب، كان مدير نارايان بانتظاره، فهمس بأذنه: لا تقلق يا نارايان. سوف تعود في أيام قليلة. السيد فاسو سوف يفعل المستحيل ليعثر على عائلتك.

جرت قشعريرة في أنحاء جسده، لكنه استعاد اتزانه وهز رأسه بأدب، ثم اتجه مباشرة إلى حيث يعمل آمار وبشنو وأخبرهما بما جرى. خرج الثلاثة من البوابة على خطى السيد فاسو الذي أشار إلى الكرسي الخلفي لسيارة الشحن، فقفزوا إليه.

بينما كانت سيارة الشحن الصغيرة تسير مسرعة على الطريق السريع، أخذ الرجال الثالثة يتداولون ما يُتوقع: إلى أين يمكن أن يكون قد يذهب أقاربهم إذا لم يعودوا إلى القرية؟ وما السبب الذي جعلهم يعصون أوامر سيدهم؟

توقفوا عن الحديث ليتبينوا سبب وقوف السيد فاسو أمام معبد القرية، فقد اعتقدوا أنه سوف ينقلهم إلى المجمّع.

برز ستة رجال من المعبد ساعة وصولهم. انحنى رجلان ضخمان وحملا آمار بخشونة إلى المعبد، وتبعهما الرجال الباقون، فأخذوا نارايان وبشنو إلى الداخل.

شكل الرجال الستة حلقة حول العمال، وبدؤوا بضربهم بالعصي واللكمات والأحذية بوحشية. بعد أول ركلة على أنفه، أغمي على نارايان. وعندما أفاق، وجد قريبيه ممدّدين على الأرض بجانبه في بركة من الدماء.

عندما حل الظلام، عاد السيد فاسو وعصابته، وسأل الرجال الثلاثة بلهجة تهديد: هل أنتم مستعدون للحديث الآن؟

لقد قلت لك منذ البداية أننا لا نعرف أنهم قد تركوا المجمّع إلا عندما أتيت إلى فرن الطوب هذا اليوم، قال نارايان ووجهه إلى الأرض خوفًا من النظر في وجه من يعذبه، ثم أضاف: أعتقد أنهم توجهوا إلى قريتنا.

غير صحيح، صرخ السيد فاسو وهو يعاجل نارايان بركلة على أضلاعه، وأضاف قائلا: لقد أرسلت بعض رجالي إلى القرية صباح هذا اليوم، ولم يعثروا عليهم. ولم يعترف أحد في القرية أنه رآهم. فأين يمكن أن يكونوا؟

أدلى المُختطَفون بكل ما لديهم من إجابات، فمزّق رجال فاسو ثيابهم، ثم حلقوا شعر رؤوسهم. بعد ذلك، طلب فاسو إلى رجاله أن يرفعوهم ورؤوسهم إلى الأسفل لالتقاط صورة لهم في هذا الوضع المهين.

نام الرجال الثلاثة عراة على أرضية المعبد الإسمنتية. ظل نارايان يتقلب طوال الليل لأنه لا يوجد في جسده جزء لم يتعرض لإصابة. وبينما كان يحاول النوم، أخذ يجول ببصره في أرجاء العبد. لقد اعتاد منذ طفولته الذهاب إلى المعبد مرة في الأسبوع. ثم تساءل: ألا ترى الآلهة التي يعبدها الهندوس ما يجري داخل المعبد!

## غاري هاوغن

يكتشف غاري مرة بعد أخرى أن المجرمين يستخدمون أداتين لتنفيذ مآربهم؛ الإكراه والخداع. ويعني الإكراهُ إجبارَ شخص على أداء عمل ضد رغبته، بالتهديد أو ممارسة العنف البدني. أمّا الخداع فيلجؤون إليه لإخفاء سرائرهم الحقيقية وللتغطية على جرائمهم. ويجعل الجمع بين الإكراه والخداع من الصعب تقديم مالكي العبيد وغيرهم من منتهكي حقوق الإنسان إلى المحاكمة.

وما ساعد غاري كثيرًا في مجال مكافحة العبودية هو عمله السابق؛ محقق في انتهاكات حقوق الإنسان. ففي عام 1989، فوضته لجنة المحامين لحقوق الإنسان في قضاء أربعة أشهر بالفلبين للتحقيق في جرائم حقوق الإنسان في ذلك البلد الذي تحرر حديثًا من حكم ديكتاتوري طويل. تولت زعيمة المعارضة كورا زون أكينو رئاسة البلاد بعد الإطاحة بالرئيس فرديناند ماركوس، وحمل التغيير معه أحلامًا كثيرة للشعب الفلبيني. ولسوء الحظ، فإن انتهاكات حقوق الفقراء لم تتوقف، وظل المجرمون يسرحون ويمرحون دون رادع.

عندما استقر غاري في الفلبين، قرر أن يركز أولا على مذبحة حظيت بتغطية إعلامية كبيرة في قرية لوباو، والتي اتهم فيها جنود فلبينيون بقتل سبعة عشر قرويًّا، من بينهم ستة أطفال. وقد تضمنت معظم الأدلة التي حصل عليها غاري شهادات سبعة من الناجين الذين قالوا إن الجنود أعدموا القرويين العزّل. وبالرغم من رجحان الدليل، إلا أن المحكمة العسكرية أفرجت عن الجنود المتهمين. وخرجت الرئيسة الجديدة المنتخبة ديمقراطيًّا بعد الإفراج مباشرة لتبرير النتائج أمام الشعب، مدعية أن الشهود على المذبحة رفضوا التعاون مع المحكمة. وكان تبريرها شبيهًا برواية المدعين العامين العسكريين، ورئيس المحكمة العسكرية، الذين قالوا إنهم لم يستطيعوا إثبات الجرم على الجنود المتهمين دون مساعدة من الشهود.

بعد مراجعته لملف القضية، شك غاري أن هناك أمرًا مريبًا، فهو يعرف من خبرته أن الأشخاص الذين يشهدون مقتل إنسان عزيز عليهم يحرصون بشدة على الإدلاء بشهادتهم ضد القتلة، وتقديمهم إلى العدالة. فَلِمَ، إذن، تغيب الشهود في هذه القضية عن جلسات المحاكمات.

وبدلاً من الاستناد إلى وثائق المحكمة، اختار غاري الذهاب بالحافلة إلى القرية في رحلة استغرقت تسع ساعات، في محاولة كشف الغموض هذا. عندما وصل القرية، التقى غاري بعدد من الشهود، وعرف أن الناجين السبعة جميعهم قد شهدوا أمام المحكمة العسكرية بما حدث، وتعرفوا إلى أربعة من المتهمين. وكما توقع غاري، فقد كانت التقارير الرسمية عن المحاكمة محض افتراء وكذب.

وبالرغم من تغيّر الوجوه والأماكن، إلا أن غاري لا يرى فرقا بين الآليات المستخدمة في الماضي والآليات الحالية؛ فالأقوياء في كل مكان يستخدمون الإكراه والخداع لانتهاك حقوق الفقراء والمساكين. إنهم يستخدمون قوات أمنهم الخاصة، ويحلّون النزاعات على طريقتهم. أما الفقراء والؤساء فلا يستطيعون حماية أنفسهم أو تطبيق عدالتهم. ولا سبيل أمامهم سوى الاحتكام إلى القانون، إذا ما نُفّذ بشكل صحيح. كما يستطيع الأقوياء التحايل والتعامل مع المشكلات، وتحقيق أهدافهم في ظل الأنظمة الفاسدة، في حين يتسمّر الفقراء عاجزين.

## نارايان: الالتزامات العائلية

ظل السيد فاسو يحقق مع العمال ليومين متتالين. ولأنهم لم يغيروا أقوالهم، استمرّ التعذيب دون توقّف.

وفي اليوم الثالث، نقلهم إلى المجمّع، وغير أسلوب التعامل معهم؛ أعطاهم ملابس لا تناسبهم، وأجبرهم على أداء أعمال سخرة لا معنى لها. كان يجبرهم

على العمل طوال اليوم في إنزال حمل شاحنة من الرمل، ثم تكويمه على الأرض، ومن ثـم إجبارهم في اليوم التالي بتحميل كومة الرمـل في الشاحنة. لم يعرف الغايـة من هـذا الأسلوب أحد سوى السيد فاسو، لأنـه كان يلتقط صورًا للرجال الثلاثة وهم يقومون بهذا العمل.

فـي اليوم السادس من الحجـز، أيقظ السيد فاسو آمـار من نومه، وأمره بركـوب الشاحنة، ثمّ أخذه إلى المعبد. خشي آمار من جولة تعذيب أخرى، لكن السيد فاسو أخبره بأن عليه الذهاب للبحث عن الهاربين، وقال إنه سوف يواصل تعذيب نارايان وبيشو إلى حين عودته.

ولكننـي بصدق لا أعرف أين أبحث عنهم، احتج آمار قائلا؛ لأنه كان على يقين بفشل مهمته.

سوف تتصل بي هاتفيًّا كل يوم وتبلغني بأي تقدم، رد عليه السيد فاسو دون اكتراث باعتراضاته. وأضاف: وإذا لم تهاتفني في يوم من الأيام، فسوف أعاقب قريبيك بدلا منك. وإن حاولت الهرب، فالموت مصيرهما.

أعطـى المالك آمار مبلغًا زهيدا مـن النقود لتغطية تكاليف أجرة الحافلة والمكالمات الهاتفية، وتركه ينطلق في مهمته.

لم يتلق السيد فاسو أي مكالمة هاتفية من آمار في ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي بعده؛ بل ولا في أي يوم آخر. وأمّا تهديد السيد فاسو، فإنه صادق في ذلك، وهو على أهبة الاستعداد لتنفيذ تهديده دائمًا. ولذلك، كان يضرب نارايان وبيشو بقسوة كل ليلة وهو يسألهما: أين آمار هذا؟ إن عائلتكما بأكملهما ستدفعان ثمن الإخلال بالوعد.

## غاري هاوغن: التدخل المنظم

في أواخر عام 1994، أعارت وزارة العدل الأمريكية غاري إلى الأمم المتحدة ليعمل مديرًا لتحقيقات الإبادة الجماعية في رواندا. وقبل تعيينه بأشهر قليلة، ذبح مسلحون من قبيلة الهوتو سكان قرية كاملة من قبيلة التوتسو في موجة الجنون التي اجتاحت البلاد.

بدأ غاري تحقيقاته بقائمة من مئة قبر، حيث ذكر شهود عيان، وعملاء مخابرات عسكرية تابعون للأمم المتحدة أنها ربما تكون نتيجة لمذبحة جماعية. لقد كانت مهمة صعبة فوق التّصوّر. أخذ غاري وفريقه يخرجون الجثث من القبور ويصنفونها، ويبحثون عن أي دليل يمكن أن يدين القتلة.

كانت التقارير قد ذكرت أن ما لا يقل عن ثمانمئة ألف شخص من قبيلة التوتسي قُتلوا في غضون ثمانية أسابيع. عثر غاري وفريقه على مقبرة جماعية خلف كنسية كاثوليكية في قرية كيبويي في جنوب البلاد قرب الحدود مع بوروندي. كان نحو 450 شخصًا قد التجؤوا إلى الكنسية في إبريل 1994، بعد أن سمعوا بهجوم العصابات المسلحة ( الميليشيا ) في المنطقة. وعندما وصل أفراد هذه الميليشيات، ذبحوا كل إنسان وجدوه أمامهم، بمن في ذلك المختبئين في الكنيسة.

غاصت قدما غاري في وحل المقبرة، في حين كانت رائحة الجثث المتعفنة تزكم الأنوف. كاد يتملكه اليأس. فما الذي قد تعنيه العدالة لهؤلاء الضحايا؟ ما فائدة إدانة المجرمين بعد توقف العنف؟

أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسه، وصل بعدها إلى استنتاج مفاده أن البحث عن العدالة يوجد إرثًا اجتماعيًّا. لقد اعتُمدت الأدلة التي جمعها فريقه من قبل المحكمة الجنائية الدولية الرواندية لإدانة قادة المتورطين في المذبحة؛ حاكم المنطقة، ورئيس البلدة، والمتعاونين معهما. ولذلك، فإن محاكمة السّفاحين على

جرائمهم ضد الإنسانية لا يخفف من عذابات الضحايا فحسب، وإنما يوجد الثقة لدى الناجين في حكم القانون. وعلاوة على ذلك، بعثت إدانة المجرمين برسالة إلى الأجيال القادمة من الروانديين في أن العدالة ستأخذ مجراها لا محالة، وأن المجرمين لن يفلتوا من القصاص.

لقد ترك هذا السعي الحثيث لتحقيق العدالة أثره العميق من خيبة الأمل في عمل غاري ضمن بعثة العدالة الدولية. وبالرغم من أن البعثة قد سعت جاهدة مع القضاة المحليين في الهند لإدانة مالكي العبيد على جرائمهم، إلا أن أحدًا من المجرمين لم يقض ولو ليلة واحدة في السجن لإدانته بجريمة أعمال السخرة.

ولذلك، فإنه لا يُفاجأ عندما يثنيه الواقعيون الاجتماعيون عن محاولته لتحقيق العدالة في دول لا دور للقانون أو القضاء فيها. وكثيرًا ما يسمعهم يقولون: إنهم شعب فاسد، تلك طبيعتهم التي جُبلوا عليها. وعليه، لا مجال لتغييرهم.

لكن غاري يرفض الاقتناع بهذه الحجة؛ فعندما يقرأ كتب التاريخ السياسي، يدرك أن المجتمعات الديمقراطية الغربية جاءت نتيجة لتجربة طويلة في كبح السلوك العنيف. ويهدف النظام القضائي في هذه الدول إلى ضمان عدم لجوء المواطنين إلى حل نزاعاتهم من خلال اللجوء إلى القوة البدنية الوحشية. وهذا لا يعني أن شعوب المجتمعات الديمقراطية دمثون بالفطرة أو أكثر تعقّلا من غيرهم. ولكن كلّ ما في الأمر أن مواطني هذه الدول يتمتعون بالحقوق المدنية، وحرية الحركة بسبب وجود نظام قضائي فاعل. صحيح أنه لا يتّصف بالكمال، إلا أنه البديل الأفضل للحدّ من العنف.

ويروي غاري حكاية وقعت له عندما قام بدور عميل سري في التحقيقات المتعلقة بتجارة الأطفال الجنسية في كمبوديا. في أحد الأيام، قاده أحد السماسرة إلى غرفة كانت تضم اثنتي عشرة بنتًا تتراوح أعمارهن بين خمس إلى عشر

سنـوات. وكان على أولئك الفتيـات القاصرات إشباع أي رغبـة جنسية للزبائن مقابل بضعة دولارات.

يقـول غاري: لا تنس أن الاستغلال الجنسي للقاصرين مخالف للقانون في كمبوديا. ولكنك تجدني هنا أتفاوض بصراحة على انتهاك حقوق هؤلاء الفتيات القُصَّر. ومثل هذه الصفقات تحدث بسبب عدم تطبيق القانون. وما يزيد من رواج سوق العبودية في العالـم هو أن السلطات المسؤولة عن تطبيق القانون تتغاضى عنها.

لهـذا السبب ، يؤمن غاري أن السعي لإدانة المجرمين يعدّ إحدى الأدوات الفاعلة لمنع أي جرائم تحدث مستقبلا ، من خلال إشعار الأفراد الذين يتاجرون بالبشـر أو ينتهكون حقوقهم بالتّوقّف أو تحمّل العواقـب. وفي هذا السياق، فإن برنامج عمل مناهضي العبودية الحاليين يختلف كثيرًا عن حركة مناهضة الرق في القرن التاسع عشر ، والتي واجهت تجارة الرّقيق الإفريقي عبر المحيط الأطلسي. كانـت تجارة العبيد في ذلك الوقت مرخّصة مـن الدولة، ومتشابكة مع مصالح الدولـة المالية. وقد استطاع قادة الحركة، آنذاك، رفع غطاء الشرعية عن هذه التجارة.

الآن، لا توجد دولة واحدة في العالم ترى العبودية مشروعة. ومع ذلك، ما تزال العبودية موجودة. ولو أن هذه الدول طبقت القوانين الموجودة في الدّساتير لاختفت العبودية من يومها ، إلّا أنّ القوانين غير مطبقة. كما يعرف تجار العبيد أن باستطاعتهم الاعتماد على نظام القضاء الأعرج للتهرب من المحاكمة. إضافة إلى اعتمادهم على عدم اهتمام السلطات المحلية، وعرقلة عمل المحاكم، واستغلال الروابط العائلية، والنفوذ الاجتماعي.

يقول غاري آسفا: حاليًّا، لا يشعر تجار الرّقيق والجنس بأي خوف، لكن من يخاف هـم ضحايا هذه التجارة. إننا بصدد قلب هذه المعادلة. وبعبارة أخرى، فإن عملنا قد بدأ للتّو.

## مايا: جمع شمل العائلة

رأت مايا رجلا حليق الرأس يعبر الحقل متجهًا إلى كوخها. وعند اقترابه منها، اعتقدت أنه ربما تعرض إلى حادث سيئ، فقد غطت الكدمات السود والزرق كلّ جزء من وجهه المتورم.

السلام عليك يا مايا، قال الرجل بصوته المألوف عندما وصل إلى الكوخ. وعندما لاحظ ارتباكها، هدّأ من روعها، قائلا لها بصوت رقيق: أنا عمّك آمار.

شهقت مايا، ثم ركضت إليه واحتضنته وهي تقول: عمي العزيز، ما الذي جرى لك؟

الرواية ليست مسلّية يا ابنة أخي، قالها بحزن. أحضري أجاي وأبناء عمك لأروي ما حدث للجميع.

تركته في الكوخ يأخذ قسطا من الراحة، ثم ركضت عبر حقل الأرز الذي كان معظم أفراد العائلة يعملون فيه. تناقشوا فيما بينهم ما إذ كان آمار قد جاء من تلقاء نفسه، أم أن السيد فاسو قد استخدمه طعما لإيقاعهم في المصيدة. وبعد المداولة، قرروا أن يبعثوا مجموعة تطوف حول أطراف القرية للتأكد من عدم وجود صائدي جوائز مختبئين بانتظار القبض عليهم. ومع انتصاف النهار، اجتمعت العائلة في كوخ ما. ساد صمت مطبق في الوقت الذي كان آمار يروي ما جرى له ولناياران وبيشو في الأيام القليلة الماضية، ثم عرض على الحاضرين

الصـور التي بعثها السيد فاسو معه. لقد أراد للعائلة أن تكون شاهدة على الذل، وأن تعرف أنّ ما تعرض له الرجال الثلاثة كان بسبب هروبهم.

وعندما شعر آمار أن الجو أصبح مشبعًا بالقلق والتوتر، قال: نحن لا نحملكم مسؤولية ما حدث لنا، بل نحن من يتحمل هذه المسؤولية بطريقة أو بأخرى. فمن كان يتصور أن السيد فاسو بهذه الوحشية والقسوة.

تمتـم الجميع بالموافقة، فواصـل آمار حديثه: ولكننـا الآن نواجه مشكلة حقيقيـة، فالسيد فاسو هدد بأنـه سوف يقتل نارايان وبيشو إذا لم نرجع، ونحن نعـرف أن علينا عدم الاستخفاف بتهديـده. توقف آمار عن الكلام ليرى إن كان هناك من يريد التعليق، لكن جميع من كانوا في الحلقة أطرقوا صامتين وعيونهم محدقة إلى الأرض. عندها، تابع حديثه قائلا: بقدر حزني الشديد على نارايان وبيشو، إلا أنني لا يمكن أن أعود. وأعتقد أنكم سوف ترفضون العودة كذلك. ولكن لا يمكننا التخلي عن أقاربنا. علينا التصرف، أن نفعل شيئًا ما!

أجـل! نحن نوافقك الـرأي يا آمار، قال أجاي بصـوت خافت، ثم أضاف: إن النـاس محظوظون في هذه المقاطعة لأن لديهم قادة مخلصين. لقد التقيت أحدهـم بالأمس وقصصت عليه ما مررنا به، وقد أرشدني إلى وكالة تُدعى بعثة العدالة الدولية، تحمي المُسْتَعْبدين مثلنا. لذا، أرى أن نطلب إليه إيصالنا بهذه الوكالة فورًا، فربما كانت لديها حلول ما لمواجهة السيد فاسو. أما إذا تصرفنا لوحدنا فإن الفشل مصيرنا.

## مايا تلتقي البعثة؛ عملية الإنقاذ

تسارعت الأحداث فور ذهاب مايا وأجاي إلى مختار القرية طلبًا للمساعدة. فقد زارا بيت الرجل في الصباح، وما إن جاء العصر حتى قدم لهما حلّا، يقضي

بسفـر ثمانية من أفراد العائلة إلى مكان آمن يستطيعـون فيه الإدلاء بإفاداتهم لبعثة العدالة الدولية. وأعرب المختار عن ثقته بإطلاق سراح الرهينتين إذا ما تعاون أفراد العائلة، وقاموا بما هو مطلوب منهم.

أكد الرجل لمايا وزوجها أنّ بإمكانهما أن يثقا بهذه المنظمة؛ فقد نجحت في تحرير عمال كثيرين في مقاطعته حتى من بين براثن أكبر العتاة.

درجت بعثة العدالة الدولية علـى استخدام عملاء سريين في تحقيقاتها، للتأكـد من أنها تتعامل مـع قضية رهائن، كما أن جمعهـا للحقائق في الظروف العادية كان يستغرق عدة أشهر لضمان إدانة المجرمين.

ورغـم طبيعـة الاستعجال في هـذه القضية، إلا أنه كان فيهـا عامل واحد لصالح البعثة، وهو أنها تتعلق بنحو عشرة عمال أو أكثر، في حين شملت قضايا العبودية السابقة التي حققت فيها أعدادًا كبيرة من العمال تتراوح أعدادهم بين 100 — 150 عاملا.

لم تكن العائلة بحاجـة إلى إقناع لتتعاون، فحياة نارايان وبيشو في خطر، كما أن السيد فاسو لن يتوقف عن ملاحقة الهاربين حتى يقبض عليهم، وإذا لم يوقفوه عند حده الآن، فسوف يلازمهم الخوف طوال حياتهم.

في إفادتها أمام بعثة العدالة الدولية، لم تكن مايا بحاجة إلى تدريب لتتمكن من سرد التفاصيل، فقد كانت لحظات الألم كلها التي مرت عليها طوال الأشهر العشـرة الماضية حاضرة فـي ذاكرتها كما لو أنها حدثـت بالأمس. لم تكن في أول الأمر قد قررت أن تأتي على ذكر الاعتداءات الجنسية. ولكن، عندما سألها المحامـي فيما إذ كانت قد تعرضت للاغتصاب، لـم تصدق نفسها وهي تقول: أجل! مرات عديدة، وعلى أرض المعبد أيضا.

في خلال 48 ساعة، رافق موظفو البعثة قوة من الشرطة الهندية في غارة على فرن الطوب. وجدت القوة صعوبة في العثور على الرهينتين في البداية، وقامت بتفتيش مهاجع النوم ولكن دون جدوى. لكن فريق إسناد تابعا للبعثة كان يراقب الغارة من بعيد شاهد أحد أتباع السيد فاسو يتجه إلى كوخ صغير في حقل مجاور. اتصل الفريق المساند لا سلكيًّا بالفريق الميداني وأبلغوهم بما رأوه. سارع الفريق الميداني إلى الكوخ، وعندما اقترب منه سمع صراخًا مكتومًا. وعند اقتحامهم الباب، وجدوا نارايان وبيشو جالسين القرفصاء على الأرض في رعب شديد.

في اليوم الثاني، أحضرت البعثة العبيد المُحرّرين جميعهم إلى مكتب قاضي المقاطعة الذي أصدر وثيقة لكل واحد تنصّ على أنهم لا يدينون للسيد فاسو بشيء، وأنهم أحرار في متابعة مسيرة حياتهم. وأوضح لهم القاضي أن الوثيقة تؤهلهم للحصول على مزايا كثيرة، بما في ذلك مساعدة مالية نقدية لمرة واحدة. وفي عصر ذلك اليوم، عادت العائلة إلى قريتها بسلام.

وبالرغم من الأدلة المقدمة ضد السيد فاسو، إلا أن قوة الشرطة التي أغارت على المجمّع لم تعتقله. لكن بعثة العدالة الدولية استمرت في القضية، وقدمت للشرطة قائمة بالمخالفات الإجرامية التي اقترفها صاحب الفرن، بما في ذلك حبس أشخاص بصورة غير قانونية، والإساءة الجسدية، والتعذيب، والاغتصاب، وإكراه العبيد على العمل دون مقابل. وبالرغم من التوثيق الدقيق والإفادات الموثّقة من شهود متعددين، إلا أن السلطات لم توجه إليه أي اتهام. وبعد عامين من الجهود المضنية التي بذلها فريق البعثة، اعتقل السيد فاسو، ولكن أطلق سراحه بانتظار محاكمته. ولم يقض يومًا كاملا وراء القضبان جراء جرائمه.

لا تزال مايا وأجاي يكدحان لتأمين لقمة عيشهما. وإن حالفهما الحظ، يجدان عملا في إحدى المزارع المحلية. وقد استطاعا شراء عدد قليل من البقر

والضــأن. ومع أنهما لا يدّخــران نقودًا كثيرة، إلا أنهما يكسبــان ما يكفي لإعالة عائلتهمــا وكسوتها. وقد أقسمــا أنهما لن يحاولا الحصول علــى قرض من أحد مرة أخرى.

وبالرغم من تحسن ظروف الحياة، إلا أن مايا تعترف أنها لا تشعر بالأمان. إنها تخشى ظهور السيد فاسو في حياتها في أي لحظة، ويجبرها على العودة إلى .مدينــة في المنطقة. صحيح أن الحكومة تعتــرف بحريتها، إلا أنّ الفزع الدائم قد تمكّن منها.